تجارة فى مجـــــاهل إيران
أول مغامرة فى حياتى

تتمة لما نشر فى العدد الأسبق

أنزلنا الصناديق من على ظهور البغال ووضعناها فى البيت الذى نزلنا فيه . أخذ التجار يتوافدون علينا وصار صغار التجار يتلاعب علينا بالأسعار ؛ فمرة يرفعونه إلى أضعاف القيمة ، ومرة ينزلون بنا إلى أسفلها ، فاحترنا فى البيع . وفكرت قليلا ثم قلت لصاحبى : الأحسن أن تبيع المال على صاحب البيت ليكسب منا بعض الربح عوضاً عن استضافته لنا ، قال : حسن الرأى .

وبعد أخذ ورد صرّفنا المال على صاحب البيت .

جلسنا عنده يومين وفى اليوم الثالث طلبنا منه القيمة فقال : والله إنها لمصيبة . لم يمض على مشترى منكم سوى يومين وتطلبون منى القيمة . أما علمتم أنى اشتريت منكم المال على أن أدفع لكم القيمة بعد مضى شهر . فالتفت إلى صاحبى وأنا أقول : يقول صاحب المثل : « طلقها وخذ أختها . قال : الله يلعن الاثنتين منهما » . فانذعر صاحبى لهذه المفاجأة ، وهبّ واقفا مملوءاً غضبا فأدركت الخطر وقلت : نعم ، نعم . إنه لكذلك . قاشتد صاحبى حمقا وأراد أن يطبق يداه على رقبة صاحب البيت لولا أنى أخذته من يده إلى خارج المنزل كأننا نتشاور فى شىء يهمنا ؛ فهدأته وأخبرته أننا فى موقف يتطلب المجاملة ، فإن لم تهدىء من غضبك أخذونا عنوة وغصبا . فسلم صاحبى الأمر لله وعليه الإتكال .

* * *

مضى علينا فى تلك البقعة مدة عشرة أيام؛ نحسن المنطق معهم ، ونحترم الكبير ، ونلاطف الصغير ، وصاحب البيت يتعامل فى دراهمنا ونحن لا نقدر على شىء سوى اندماجنا معهم كأفراد العائلة ، حتى أنهم إذا أرادوا الذهاب للصيد أو إلى أى قرية من قراهم المجاورة تركونا فى البيت نقوم عنهم فى إكرام أى قادم ، ونذود عن الزرع خوفا من أن تأكله الماشية ، كأننا نساؤهم فى البيت ، وهذا منتهى كرم الضيافة كما ترى . . أليس كذلك ؟

فاعمل بهذه النصيحة إذن دون أجر .

* * *

وتقع هذه القرية التى كنا فيها على أحد فروع شط بنى تميم . وهذا الفرع ينحدر نحو الجنوب حيث يصب فى بحر « هذريان » كما يسمونه .

وفى كل يوم يجلس أحدنا فى البيت للمراقبة ، والآخر يذهب للتنزه على ضفاف النهر . فجاء يوم نزهتى فذهبت أتمشى على الساحل وأنا أحدو ببعض الغناء البلدى ، وبينا أنا كذلك إذا بوحش — أجارك الله — يقفز من أمامى فأرق قلبى ، وأرعد بطنى ، وظننت أن السحاب سيستهل من تحتى ، فقد عملتها والله . . وما شعرت بنفسى إلا وأنا فى النهر أنظر إلى هذا الذى قفز من أمامى وإذا بى أرى ثعلبا شاردا يتراقص ذنبه ولا بد أن يكون أحد القناصين قد طارده لمدة طويلة . وحين ابتعد عن ناظرى وردت إلىّ روحى والتفت إلى نفسى قلت : الحمد لله الذى لم يرنى أحد على هذه الحالة . فخرجت من الماء أتعثر فى أذيال ملابسى من شدة ما أصابنى من الفزع ، فلقد أصابتنى رجة تخيلت معها أن طبلا صغيرا علق فى جوفى والضارب عليه هو ذلك الثعلب . ثم نزعت ثيابى وأنا أتلفت يمنة ويسرة خوفا من أن يرنى أحد ، وعصرتها ونشرتها على فروع إحدى الشجيرات . وبعد أن جفت لبستها وأنا أحمد الله على السلامة إذ لم يمر بى أى مخلوق ثم هرولت إلى البيت مسرعا

* * *

وصلت البيت وقصصت على صاحبى ما أصابنى وإذا به يفاجئنى بقصة أخرى عن نفسه ولست أدرى لم أخفاها عنى قال صاحبى :

منذ يومين ذهبت أنا كذلك أتمشى على ضفة النهر وكان معى عصاة صغيرة ، وحين وصلت إلى بعض الشقوق على حافة النهر — وفيها تكمن الوحوش لتخفف عنها من حرارة الشمس المحرقة — رأيت حيوانا صغيرا أصفر اللون قابعا فيها فحدثتنى نفسى بقتله قبل أن يجهز على ، ثم تأهبت

بكل ما لدى من قوة وتأهبت للفرار كذلك عند ما يحين وقته . وهويت عليه بضربة قاصمة فجندلته تحت قدمى مضرجاً بدمائه ثم فحصته جيدا وإذا به — ويا لضيعة الشجاعة والجرأة — فرخ طير « البوم » .

وبينما أنا أقلبه وإذا بأمه على الضفة الثانية تصيح صيحات مزعجة وكأنها أحست بما أصاب فلذة كبدها. وتركته ملقى على الأرض وهربت مسرعا إلى البيت .

وهكذا وجدنا فيما حدث لكلينا مصدر ضحك طويل متواصل .

* * *

وجاء يوم حراستى فأشرت على صاحبى أن يذهب لغسل ملابسنا فى النهر ، فتردد بادىء الأمر ، لكنه صمم على أن يفعل بعد برهة ، وتوجه المحروس برعاية الله وأنا أشيعه بضحكاتى . وبقيت أنا أفكر فيما آل إليه حالنا فى هذه البقعة المنفصلة عن العالم . وبعد قليل رأيت حيواناً ضخم الجثة يشبه الحمار فى شكله أقبل متبختراً يقصد البيت ، وحمدت الله أنه عرف مدخله فلم يتجه إلىّ . ويظهر أنه اعتاد دخول البيوت من أبوابها . ولذلك فكرت فى نفسى وقلت لعل هذا الزائر معتاد على زيارتهم . ولكننى ما لبثت أن سمعت صراخ النساء والأطفال وهم يرددون الخنزير . الخنزير . ثم تعالى صراخهم وعويلهم فقلت أخاطب نفسى : لا يمكن أن أقف هكذا فلا أذود عن البيت وأهله هذا الخطر ولو كان فى ذلك موتى . فإما الانتصار أو الموت الزؤام . ثم اندفعت مسرعا أفتش عن شىء للدفاع به فوجدت قطعة من الحديد الصلب طولها متران خطفتها واتجهت إلى الوحش داخل البيت ، لكننى رأيته يولى الأدبار ، وهنا استمعت إلى شيطانى يخاطبنى ويستحثنى : أليس من العار أن تحمد السلامة فتفر هارباً ، وها هو الوحش أمام ناظريك . فعليك به ؛ عليك به إن كنت شجاعاً . وهكذا اندفعت خلفه حتى ضايقته فى الركض خلفه ولم يرَ بداً من الهبوط فى النهر . فانحدرت أنا كذلك إليه مدفوعاً بحماستى وشجاعتى المفاجئة لكن الوحش — وقد رأى المسافة طويلة لعبور النهر بالإضافة إلى صيحات النساء والأطفال وصاحبى معهم يأمرونى جميعاً بالرجوع عنه — ارتبك على مايظهر وصمم على مواجهة المعركة . لكنه ما أن وضع أول قدم على حافة النهر للانتفاض علىّ بعنف ؛ إلا وتلك القطعة الحديدية قد توسطته فى أم رأسه بكل ما لدى من قوة . ثم انقض علىّ فزغت عنه وأنا أصيح بصاحبى ليلقمه الثانية ، فلم أر أحداً فألقيت بنفسى فى النهر وأخذ هو يدور فى مكانه من شدة الضربة .

هنا وبمثل هذا الموقف تنفع السباحة . فسبحت مع منحدر النهر إلى مسافة عشرة أمتار منه . وخرجت إلى الشاطىء فأمنت حينئذ طريق الفرار على الأرض اليابسة ومن بُعد قذفته بقطعة حديد . حادة فأصابت قدميه فتدحرج إلى الماء ثانية بعد أن تشبث ببعض أعشاب على حافة النهر ، وأخذ يدور فى شكل دائرة من عُنف الضربة . النهر عميق ، والمعركة فى مرحلتها الأخيرة وهكذا استرسلت فى تهورى فقفزت وراءه فى الماء وأخذت أرش الماء بقوة على وجهه حتى أعميته وكلما دار بجثته نحوى درت معه . وما لبث أن امتلأ بطنه من الماء فخارت قواه ولم يُبد حراكا . وهنا نزل صاحبى إلى المعركة وبيده « مسحات » فغطس رأسه فى الماء وأجهز عليه تماماً . فخرجت أنا أتبختر فى مشيتى من شدة الفرح ولذة الانتصار

وقالوا لى إن هذا الخنزير له ناب يسمى « خَلْفَه » أى أنه خارج من فمه من طوله . ولو أصابك به لبقر بطنك .

وفى الحقيقة لو كنت أعلم ذلك لما اقتربت منه ، ولوليت الأدبار ، ولكن الحمد لله فقد فات الأوان وتحقق النصر .

وقلنا لهم بفخر وتعاظم إن الطفل فى بلادنا كفيل بقتل مثل هذا الحيوان ونحن هناك نظارد أعظم من هذا لكنكم أنتم تهابونه وأنا أردد فى نفسى « الحمد لله على السلامة » فعظمنا فى عيونهم وابتدأوا من ذلك اليوم فى إكرامنا واحترامنا .

وبعد مضى ستة وعشرين يوماً على ميعاد البيع ، وفدت إلينا بغال محملة بفريسة ثانية أشهر من فريستنا . ولهذا قبل صاحب البيت راضياً أن يسلمنا دراهمنا ففرحنا بها ، وإن كانت ناقصة قليلا .

وهكذا ودعناهم . وركبنا السفينة طالبين الوطن والأهل والأحباب وتركناهم للفريسة الجديدة .

الكويت

فهد الفارس